المحاضرة السابعة:

(مقامات بديع الزمان الهمداني والحريري ومنامات الوهراني)

تمهيد:

أولا- تعريف المقامة:

1- المقامة لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور " أن المقامة تعني الموضع الذي تقيم فيه، والمقامة بالضم : الإقامة . والمقامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس[1]

ويقول شوقي ضيف: "إذا رجعنا إلى الشعر الجاهلى وجدنا كلمة مقامة تستعمل بمعنيين، فتارة تستعمل بمعنى مجلس القبيلة أو ناديها ، على نحو ما نرى عند زهير إذ يقول: [2]

وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية يستتابها القول والفعل[3]

ويقول شوقي ضيف: "وتارة تستعمل بمعنى الجماعة التى يضمها هذا المجلس أو النادى، على نحو ما نرى عند أبيد إذ يقول: ومقامة علب الرقاب كأنهم جين لدى باب الحصير قيام فالكلمة تستعمل منذ العصر الجاهلى بمعنى المجلس أو من يكونون فيه ونتقدم في العصر الإسلامي فنجد الكلمة تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص بين يدى خليفة أو غيره ويتحدث واعظاً. وبذلك يدخل في معناها الحديث الذي يصاحبها . ثم نتقدم أكثر من ذلك فنجدها تستعمل بمعنى المحاضرة وعلى هذه الشاكلة تعفى الكلمة من معنى القيام وتصبح دالة على حديث الشخص في المجلس سواء أكان قائماً أم جالساً"[4].

ويؤكد شوقي ضيف على هذا المعنى، بقوله:"وبهذا المعنى استعملها بديع الزمان في المقامة الوعظية ؛ إذ نرى أبا الفتح الإسكندري يخطب في الناس واعظاً وعظا بديعاً ، وراعَ ذلك منه عيسى بن هشام فقال لبعض السامعين، من هذا؟ فقال: غريب قد طرأ لا أعرف شخصه، فأصبر عليه إلى آخر مقامته "[5].

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، مادة (قام).

[2]- شوقي ضيف: المقامة، ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1954، ص 07.

[3]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ص 503.

[4]- شوقي ضيف: المقامة، ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1954، ص 07.

[5]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ص 503.

2- اصطلاحا:

يرى شوقي ضيف أن بديع الزمان الهمذاني هو رائد فن المقامة في الأدب العربي، فيقول: "وبديع الزمان هو أول من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء، إذ عبر بها عن مقاماته المعروفة ، وهي جميعها تصور أحاديث تلقى فى جماعات، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث وهو عادة يصوغ هذا الحديث فى شكل قصص قصيرة يتأنق في ألفاظها وأساليبها، ويتخذ لقصصه جميعاً راوياً واحداً هو عيسى بن هشام، كما يتخذ لها بطلا وحداً هو أبو الفتح الإسكندري الذي يظهر في شكل أديب شحاذ، لا يزال يروع الناس بمواقفه بينهم وما يجرى على لسانه من فصاحة في أثناء مخاطباتهم"[1].

ويذهب شوقي ضيف إلى أن مقامات الهمذاني لا تشتمل على عناصر القصة، يقول:"وليس فى القصة عقدة ولا حبكة، وأكبر الظن أن بديع الزمان لم يعن بشيء من ذلك، فلم يكن يريد أن يؤلف قصصا، إنما كان يريد أن يسوق أحاديث لتلاميذه تعلمهم أساليب اللغة العربية وتقفهم على ألفاظها المختارة فالمقامة أريد بها التعليم منذ أول الأمر ، ولعله من أجل ذلك سماها بديع الزمان مقامة ، ولم يسمها قصة ولا حكاية ، فهى ليست أكثر من حديث قصير ، وكل ما في الأمر أن بديع الزمان حاول أن يجعله مشوقا فأجراه في شكل قصصى . وعمى على كثير من الباحثين فى عصرنا ، فظنوها ضربا من القصص ، وقارنوا بينها وبين القصة الحديثة ، ووجدوا فيها نقصاً كثيراً وهذا حمل لعمل بديع الزمان على معنى لم يقصد إليه ، فكل الذي قصده أن يضع تحت أعين تلاميذه مجاميع من أساليب اللغة العربية المنمقة ، كي يقتدروا على صناعتها ، وحتى يتيح لهم أن يتفوقوا في كتاباتهم الأدبية ووضع ذلك فى صورة قصصية ، يكون فيها حوار محدود ، ويكون فيها ما يشوق ويجذب الناشئة للاطلاع على ما يؤلفه ويصوغه . واختار البطل أديبا شحاذًا ليتم له التشويق"[2]

ثانيا- نشأة فن المقامة:

المقامة من فنون النثر العربي القديم شوقي ضيف:"المقامات جمع مقامة، وهى من أهم فنون النثر العربى، ابتكرها بديع الزمان الهمذانى فى أواخر القرن الرابع الهجري، عارضا أقاصيص على لسان أديب سيار ممن كانوا يسمون في عصره بالساسانيين الذين كانوا يحترفون الكدية أو الشحاذة الأدبية في الحصول على أموال الناس بفصاحتهم وحيلهم في أسلوب قصصي يشيع فيه الحوار، واتخذ بديع الزمان لمقاماته أديبا متسولا كبيرا، هو أبو الفتح الإسكندري وراوية يروى أقاصيصه وحيله يسمى عيسى بن هشام، وشاعت مقاماته في العالم العربى. وأوفى بهذا الفن على الغاية الحريري التي تداولت مقاماته المغرب والبلدان العربية. وكان كثير من العلماء والأدباء يعقدون لإملائها وشرحها للطلاب مجالس متعاقبة، وحاولت كل بلدة أن تدلى بدلوها فى هذا الفن، غير أن كثيرين من البلدان العربية رأوا أن يعدلوا بها عن صورتها الأصلية إلى موضوعات أدبية فيها قصص وحوار. وأول ما يلقانا من ذلك فى المغرب

---

[1]- شوقي ضيف: المقامة، ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1954، ص 08.

[2]- شوقي ضيف: المقامة، ص 08- 09.

الأقصى مقامة لعبد المهيمن الحضرمي الوزير وصاحب القلم الأعلى فى عهد أبى سعيد المرينى ثم فى عهد ابنه أبى الحسن المتوفى سنة (749هـ_1349م)، وقد سماها «مقامة الافتخار بين العشر الجوار» وهن بيضاء وسمراء، وطويلة وقصيرة، وسمينة ونحيفة، وعربية بدوية وحضرية، وعجوز وصبية. وكل واحدة منهن تناظر نقيضتها في حسنها. وقد لقيهن–كما يقول فى مفتتح مقامته بوادي الجوهر في إحدى المدن، وأجرى على ألسنتهن هذه المناظرة الطريفة. وكانت أول جارية تكلمت وطلبت المناظرة جارية يفوق ضياء وجهها ضياء الشمس فقد وقفت بين الصفوف وتقدمت وقالت "[1].

ويقول شوقي ضيف:" وكأنما ألجموا عقولهم وأطلقوا ألسنتهم، فلم يتجهوا بالمقامة إلى وصف حوادث النفس وحركاتها، ولا إلى الإفساح للعقل كي يعبر عن العواطف ويحللها ، وإنما اتجهوا بها إلى ناحية لفظية صرفة؛ إذ كان اللفظ فتنة القوم، وكان السجع كل ما لفتهم من جمال في اللغة وأساليبها، وكانت ألوان البديع كل ما راعهم منها ومن أسرارها وتقدم بديع الزمان فى مقامته فأقام لهم معارض منسقة من ذلك ، وتبعه الحريري، وتوسع من خلفوهما بالمقامة فأجروها لا في تعليم الأساليب الأنيقة حسب ، بل أيضًا في مختلف الشئون الثقافية، فحملوها نحوا وفقها وطبا ووضعوا فيها مناظرات خيالية ، كما وضعوا بها أحيانا جوانب من مجتمعاتهم؛ ولكنهم لم يفكوا عنها أبدا قيود اللفظ وأسجاعه ، وما رسفت فيه من أغلال البديع وأثقال اللغة وألفاظها العويصة ، بل كان ذلك مقياس المهارة والبراعة""[2].

ثالثا– مقامات بديع الزمان الهمذاني:

يقول الدكتور زكي مبارك:" ألف بديع الزمان مقاماته بعد وصوله إلى نيسابور سنة 382هـ والمتفق عليه عند كتاب التراجم أنها كانت أربعمائة، ونحن نرجح أنها كانت خمسين، بدليلين : الأول أنه عارض بها أربعين حديثا أنشأها ابن دريد ، والمعارضات كانت تتقارب دائما في الكمية . الثانى أن مقاماته لم يحفظ منها غير خمسين ، فليس بمعقول أن يضيع من آثاره خمسون وثلثمائة مقامة، مع أن آثاره لم يضع منها إلا القليل يضاف الى ذلك أن الحريرى حين عارض بديع الزمان لم ينشئ في معارضته غير خمسين مقامة ، ثم صار عدد الخمسين هو الرقم المتبع فيما كتب في هذا النوع من الأقاصيص فى مقامات بديع الزمان نماذج من القصة القصيرة، ففيها «العقدة» وتحليل الشخصيات، والمقامة المضيرية التى تكلمنا عنها فى « الفكاهات » تمثل هذا الفن، وكذلك المقامة البغدادية التى أشرنا اليها في الجزء الثانى، وهاتان المقامتان هما أبرع ما قص بديع الزمان وفيما عدا ما وفق اليه في نظم بعض الأقاصيص نراه يقف حيث وقف من قبله ابن دريد فيرسل العظة، أو يسوق الوصف، أو ينمق الفكاهة، أو يقضى بأحكام أدبية أو فلسفية ، من دون أن يهتم بالعقدة القصصية"[3] .

---

[1]– شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن،2011، ص 503.

[2]– شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن،2011، ص 503.

[3]– زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع،ط1 دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر،1934، ص 206.

وأيده في ذلك الحصري القيرواني في «زهر الآداب، غير أنّ ما بلغنا من هذه المقامات اثنتان وخمسون مقامة في النسخ التي بين أيدينا، وإحدى وخمسون مقامة في إحدى النسخ. ويبدو أن النساخ والنقلة أبقوا على هذه النسخ لبلوغها تمام الصنعة، ولربما كانت أربعين نسخة ثم حُرّفت إلى أربعمائة[1]

يقول الدكتور سامي يوسف أبو زيد: "وتتفاوت هذه المقامات في مستواها الفني وفي حجمها، وذلك تبعاً للعناية التي كان يوليها البديع لكل منها. ويمكن أن نوجز السمات العامة لهذه المقامات في ما يأتي:

أ- راوية مقامات الهمذاني هو عيسى بن هشام الذي يستهل المقامة بعبارة: «حدثنا عيسى بن هشام قال، وهو رجل أسفار وتجارة واحتيال، يتحدث عن اغترابه و مصادفته لأبي الفتح الاسكندري، بطل هذه المقامات وهو رجل عقل، وثقافته واسعة، يقول الشعر، ويسلك أوعر المسالك في اللغة والنقد والأدب. يحتال على دهره القاسي بطرق شتى، فتارة يكون خطيبا يخلب أسماع الناس وتراة مشعوذاً يسحرهم بالاعيبه. وقد حمله زمنه القاسي على هذا السلوك، فتصعلك وتسول، وامتهن الكدية، وتجول في مختلف البلدان، وتقلب مع تقلبات الزمان إذ نسمعه"[2] يقول:

ويحــك هــذا الزمانُ زورُ فــلا يغرنــك الغُـــرور

لا تلتـزم حــالةً، ولكـــن در بالليالي كــمــا تـــدور[3]

ومن هذا المنطلق نراه في المقامة الساسانية زعيما لجماعة بني ساسان ونراه في المقامة الخمرية إماماً يصلي في الناس وناسكا يدعوهم إلى اجتناب الخمر أم الكبائر، وفي المقامة القزوينية متنكرا في زي الغزاة المجاهدين يخطب في الناس ويحثهم على الروم، وفي المقامة القردية قرادا يُرقص قرده ويضحك الناس، وفي الموصلية دجّالا يدعي إحياء الموتى وكشف الضر والبلاء، وفي المقامة المارستانية يدافع عن عقيدة أهل السنة ويُسفّه آراء المعتزلة على لسان مجنون المارستان.

ب. تحتشد في المقامة أساليب البيان والبديع من استعارة وجناس وسجع وطباق ومقابلة، ولعل السجع أظهر سمة فيها، وهو غير متكلف.

ج. تحفل بالمترادفات، ويطغى اهتمام الكاتب باللفظة وبالعبارة المحكمة، بحيث يستعمل اللفظ في عدد من المعاني أو التعبير عن المعنى الواحد في عدد من الجمل وكثيراً ما يأتي بالغريب من الكلام، بحيث نرى اللفظه في أصلها وفي اشتقاقاتها. د يطغى الشعر على معظم المقامات، إما مقتبساً وإما من إنشاء البديع نفسه، وهو كثيراً ما يختتم به مقامته في حدود خمسة أبيات.

---

[1]- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ، ص 503.

[2]- سامي يوسف أبو زيد: الأدب العباسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن،2011، ص 230.

[3]- بديع الزمان الهمذاني: مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص 25 .

هـ- تعددت أهداف مقامات بديع الزمان ومنها الوعظ والنقد الاجتماعي، والنقد الأدبي. وهو يردد آراء النقاد الأوائل على نحو ما يلقانا من موازنة بين الشعراء في المقامة القريضية، وقضية القديم والجديد في المقامة الجاحظية.

و- الاقتباس من القرآن والحديث النبوي الشريف، وهو يعنى بايراد الأمثال والحكم فيذكرها متلاحقة متتالية في مثل قوله في المقامة الجاحظية: يا قوم لكل عمل رجال ، ولكل مقام مقال، ولكل دار سُكّان، ولكل زمان جاحظ .

ز. تأخذ المقامة شكل القصة الفنية غالباً، وتقوم على السرد والوصف، وتحليل الشخصيات وهي تخلو من العُقد بالمعنى الفني، بل تقوم على الأزمة التي تجد حلا سريعاً، ومن ثمَّ يغلب عليها الإمتاع والتشويق ويقل فيها التركيب والتعقيد وقد صيغت في أسلوب أدبي يحفل بالألفاظ والعبارات الأليفة المسجوعة القصيرة ففيها الحدث الذي يتنامى، وفيها العقدة القصصية التي تنشأ من تشابك الأحداث.

ح- الفكاهة ذات المستوى الرفيع والسخرية من بعض العادات الغريبة، ومن بعض أفكار المعتزلة في تأويل الآيات وخلق القرآن.

ط. تفيض مقامات البديع بالحركة التمثيلية، سواء في رسم الشخصيات أو في الحوار بينها ونلمس فيها بعض عناصر المسرحية، مثل مراعاة عنصري الزمان والمكان وتصوير الصراع بنوعيه الخارجي والداخلي على نحو ما يلقانا من صراع خارجي في المقامة الأسديّة وصراع داخلي في المقامة المضيرية وصراع داخلي و خارجي في المقامة البشرية.

رابعا- مقامات الحريري:

ترجمته: الْقَاسِم بن عَليّ بن مُحَمَّد بن عُثْمَان الْبَصْرِيّ الإِمَام أَبُو مُحَمَّد الحريري

يذكر جلال السيوطي مولد الحريري، في كتابه:(بغية الوعاة)، فقال:" ولد فِي حُدُود سنة سِتّ وَأَرْبَعين وَأَرْبَعمِائَة، وَقَرَأَ على الْفضل القصباني، وَكَانَ غَايَة فِي الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة، وتصانيفه تشهد بفضله، وتقر بنبله. وَكَفاهُ شَاهدا المقامات الَّتِي أبر بهَا على الْأَوَائِل، وأعجز الْأَوَاخِر"[1]. وقال عنه ياقوت الحموي:" وكان غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة، وله تصانيف تشهد بفضله وتقرّ بنبله، وكفاه شاهدا «كتاب المقامات» التي أبرّ بها على الأوائل وأعجز الأواخر، وكان مع هذا الفضل قذرا في نفسه وصورته ولبسته وهيئته قصيرا دميما بخيلا مبتلى بنتف لحيته"[2].

---

[1]- جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج2، ص57.

[2]- ياقوت الحموي: معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب،ج05، ص202.

يقول سامي يوسف أبو زيد:" وضع الحريري خمسين مقامة حاكى فيها الهمذاني في مقاماته حتى إنهما ليشتركان في أسماء عدد من المقامات؛ كالبغدادية والحلوانية وغيرهما، وقيل إنه وضعها لشرف الدين أبي النصر وزير الإمام المسترشد بالله، وذلك أنه"[1]

يقول ياقوت الحموي:" كان جالساً في مسجد بني حرام، فدخل عليه رجل رث الثياب عليه أهبة السفر، وكان فصيحاً بليغاً، الناس عن بلدته فقال إنه فسأله سروج، وكنيته أبو زيد، فأوحى ذلك للحريري كتابة مقامته الحرامية"، ثم إن الوزير اطلع عليها وأعجب بها وطلب منه أن يضم إليها أخوات لها فكتب خمسين مقامة . وقيل إن الذي أشار عليه بذلك هو المستظهر بالله العباسي إذ كان له رغبة في الطلب، وحظ من الأدب وعناية بأهل العلم. وكيفما كان الأمر، فقد أنشأ الحريري مقاماته سالكاً فيها مسلك الهمذاني في وجود شخصية الراوية (الحارث بن همام البصري وشخصية البطل أبو زيد السروجي) وفي عدد المقامات"[2].

راويتها وبطلها:

أملى الحريري مقاماته على لسان أبي زيد السروجي؛ وهو من أهل الكدية الذين احترفوا التسول، وكانت وسيلته في ذلك فصاحة لسانه وسحر بيانه وهو يظهر في المقامات كلها، وغالباً ما يساعده على الاحتيال ولده أو زوجه، وهما يشاكلانه في الخداع والخبث والفصاحة والعلم، ولهما جمال يستعينان به على الاقتناص ولكنهما يصونانه عن البذل. وأما راويتها فهو الحارث بن همام وهو رجل ،رحالة أبي النفس بعيد عن مسلك اللصوصية ولكنه يصاحب أبا زيد، ويسأل عن حاله، ويتعاون معه على إنشاء المقامة، وهو على اجتماعه به في كل مقامة لا يعرفه إلا إذا اتبعه وسأل عن حاله، أو إذا تبين الاحتيال في أقواله وأعماله، فيضطر إلى كتم أمره ، فلا يخبر خبره إلا بعد أن ينأى عن البلد، ويأمن اللحاق.
ولكن لأبي زيد نهاية حسنة، إذ يتوب توبة نصوحاً في المقامة الأخيرة، ويقلع عن الاحتيال ويتنسك ويفارق راويته فراقاً أبدياً)) .

وقد عني العلماء بمقامات الحريري؛ فشرحت شروحاً كثيرة، أهمها شرح المطرزي (–590هـ) وشرح العكبري (616هـ) وشرح الشريشي (619هـ)؛ وبدأ الحريري مقاماته بالمقامة الحرامية؛ وهي المقامة الثامنة والأربعون سنة 495هـ وانتهى من تأليفها سنة .504هـ . ولعل كثرة شروحها ومحاكاتها تعود إلى أسلوبها وبنائها الفني المعقد، فضلاً عن بروز الجانب التعليمي فيها.

موضوعات مقامات الحريري:

تدور مقامات الحريري حول الاحتيال بطرق شتى، فتتخذ تارة شكلاً دينياً وخلقياً كما في المقامة الصنعانية، وتارة شكلاً أدبياً وفكاهياً كما في المقامة القطيعية والمقامة الواسطية، وتارة أخرى شكلاً مجونياً كما في المقامة الرحبية. وتحتوي هذه المقامات على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله، وغر البيان

---

[1]– سامي يوسف أبو زيد: الأدب العباسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن،2011، ص 251.

[2]– سامي يوسف أبو زيد: الأدب العباسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن،2011، ص 251.

ودرره، وملح الأدب ونوادره فضلاً عن الآيات والأمثال والأحاجي واللطائف والخطب والرسائل والمواعظ وقد استوت مقامات الحريري على سوقها، سواء من حيث النضج الفني أو " التعمق في التصوير النفسي وقد خطا بهذا الجنس الأدبي خطوات لم يبلغ شأوه فيها ن الذين قلدوه قبل عصرنا الحديث .

موازنة بين مقامات الحريري ومقامات الهمذاني: لقد أحصى الدكتور سامي يوسف أبو زيد بعقد مقارنة بين مقامات بديع الزمان الهمذاني ومقامات الحريري، ولخصها فيما يلي: [1]

1- يبدأ الهمذاني مقامته بإسناد الكلام إلى راويتها عيسى بن هشام مقتصراً على عبارة حدثناً. أما الحريري فيميل إلى التغيير في بدء كل مقامة منتقلاً بين حدث وروى وحكى وأخبر وقال.

2- بطل مقامات الهمذاني أبو الفتح الإسكندري شخصية وهمية لا وجود لها في الواقع، أما بطل مقامات الحريري " السروجي فشخصية حقيقية، أشار إليها الحريري في حديثه عن المقامة الحرامية. وأما الراوية فهو وهمي عند كل منهما، ونسبة الحارث بن همام إلى البصرة هي إيهام بوجوده وما هو إلا محض خيال.

3- يصور الهمذاني في مقاماته الحياة الاجتماعية من حوله، فتارة ينقدها نقداً لاذعاً، وتارة ينقدها نقداً ،فكها في حين اتجهت مقامات الحريري إلى تسلية الناس وإمتاعهم، من خلال حشد ألوان البديع بشكل فاق فيه ما كنا نجده عند الهمذاني بكثير. ومن ثم كانت مقامات الحريري أكثر إيغالاً في التسجيع والتعقيد وتصعيب الأداء، في حين جاءت مقامات الهمذاني أسهل مأخذاً وأقل تكلفاً وأكثر ابتكاراً للوقائع والحوادث.

4- مقامات الحريري تشبه مقامات الهمذاني من حيث النزعة التعليمية، لا بل تفوقها في ذلك، فقد حفلت بالألغاز والأحاجي النحوية والمسائل الفقهية، وحفلت أيضاً بالغريب من الألفاظ وأساليب العبث اللغوي فأورد عبارات تقرأ طرداً وعكساً مثل قوله : " كبر رجاء أجر ربك وأورد كلمات ذات حروف معجمة أو عاطلة، أو مرقطة. وخلب معاصريه بهذه الأساليب التي جعلت مقاماته أدق صنعةً وأوعر لغةً.

5- عنوانات مقامات الهمذاني تدور حول مناطق في العراق وفارس في حين يعمد الحريري إلى ذكر مناطق أبعد من هذين الإقليمين مقل الصنعانية والدمياطية والإسكندرية والدمشقية والمكية. وهناك مقامات مشتركة في عنواناتها عند كل منهما، ومنها البصرية والساسانية والشيرازية والحلوانية والكوفية والبغدادية والشعرية.

6- بطل مقامات الحريري أكثر وضوحاً في جوانبه النفسية من بطل مقامات الحريري ولكنهما يصفان بيئة اجتماعية متقاربة في عاداتها وتقاليدها، وكلاهما يصف مفاسد عصره .

7- الكدية تلازم المقامات عند كل منهما، لكنها عند الهمذاني تشكل قمة المأساة للبطل؛ في حين اقتصرت على تصوير دهاء البطل وظرفه عند الحريري. أما دور الراوي فواحد عندهما يقوم على كشف الخداع الذي يمارسه البطل . وعلى أية حال فإن الفروق بين مقامات الحريري والهمذاني تبقى محدودة؛ إذ

---

[1]- سامي يوسف أبو زيد: الأدب العباسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن،2011، ص 251.

هي تلتقي في موضوعاتها وأغراضها العامة

خصائص المقامات:

يرى شوقي ضيف أن يخرج المقامة من فنون القص العربي يقول:"ليست المقامة إذن قصة وإنما هي حديث أدبى بليغ ، وهى أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة ، فليس فيها من القصة الاظاهر فقط ، أما هي في حقيقتها فحيلة يطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطلع من جهة على حادثة معينة ، ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة. بل إن الحادثة التى تحدث للبطل لا أهمية لها ، إذ ليست هي الغاية ، إنما الغاية التعليم والأسلوب الذي تعرض به الحادثة ومن هنا جاءت غلبة اللفظ على المعنى فى المقامة ، فالمعنى ليس شيئا مذكوراً ، إنما هو خيط ضئيل تنشر عليه الغاية التعليمية" [1]

يقول شوقي ضيف:"ولعل ذلك ما جعل المقامة منذ ابتكرها بديع الزمان تنحو نحو بلاغة اللفظ وحب اللغة لذاتها فالجوهر فيها ليس أساساً . وإنما الأساس العرض الخارجى والحلية اللفظية . وكان لذلك وجه من النفع فإن الأدباء انساقوا إلى الثروة اللفظية ، وأخذوا يبتكرون صورًا جديدة للتعبير ولكن في حدود سطحية"[2] .

منامات الوهراني:

ترجمة العالم الأديب ابن محرز الوهراني:

هو " أبو عبدالله بن محمد بن محرز بن محمد الوهراني، عالم جزائري عاش في القرن السادس الهجري (الثاني) عشر الميلادي ولا ندري بالضبط السنة التي ولد فيها . ولم تحدثنا المصادر التي ترجمت له عن ذلك، ولكن يبدو أنه ولد في مطلع القرنين لأننا نعرف السنة التي توفي فيها وهي 575 هـ الموافق ل 1179م ، إذ من الممكن جداً أن يكون قد عاش ثلاثة أرباع القرن أو دون ذلك بقليل .

وزعم أنه ينتسب لوهران إلا أننا لا ندري هل هو منها بالذات، أو من بعض القرى الصغيرة المجاورة لها. حفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه، أو بعضاً منه، لا ندري ودرس وتعلم العلوم والمعارف العربية الإسلامية الدينية واللغوية حتى تضلع فيها وتبرز كما يدل على ذلك إنتاجه الأدبي المتنوع، والغزير، والبليغ .

ولا ندري هل تنقل في مدن وعواصم بلدان المغرب الإسلامي والأندلس للدراسة والتعلم كما فعل غيره من العلماء، أم اكتفى فقط بالدراسة في مدينة وهران وحدها.

فلم يشر إلى ذلك فيما خلفه لنا من آثار، ولم تتحدث المصادر التي ترجمت له على ذلك. ولكن عمق ثقافته اللغوية والأدبية يدل على أنه صاحب إطلاع واسع، بأحوال المغرب وتطوراته السياسية والثقافية والدينية، والاجتماعية، وذلك إما بسفراته وتنقلاته إلى مدن وعواصم المغرب المختلفة، وإما يوحي بقراءته وإطلاعه على كل ما كتب عن بلاد المغرب والمشرق في مختلف الجوانب . ففي مقامته

---

[1]– شوقي ضيف: المقامة، ص 08– 09.

[2]– شوقي ضيف: المقامة، ص 08– 09.

البغدادية، تحدث عن الفاطميين والمرابطين، والموحدين، والأيوبيين والعباسيين ومدن الأندلس، والعراق والشام والمغرب الأوسط، والأقصى، ومصر، كما تحدث عن عبد المؤمن بن علي، وصلاح الدين الأيوبي، والأمير أسد الدين شيركوه وعدد لا بأس به من العلماء، والفقهاء والشعراء والوزراء والكتاب والسياسيين والفلاسفة، والعظماء. أنه كان طموحاً إلى المعالي، ولم يجد سبيلاً إليه في وهران وبلدان المغرب الإسلامي الأخرى خلال عهد الموحدين رغم أنه صاحب قلم سيال . وقدرة فائقة في الإنشاء والكتابة الديوانية. كما يتضح من مقامته البغدادية. كما يبدو أنه لم يتصد للتدريس في وهران أو بعض عواصم المغرب حتى يكون له تلاميذ. ويشغل وقته ويعمره فيعوظه ذلك عن التفكير في الهجرة ومغادرة الوطن. ولم تحدثنا المصادر عن نشاط علمي قام به ولم يشر هو إلى تلاميذ له ويبدو تخرجوا على يديه. وهذا يشعر بأن الطموح طغى عليه، وشغله على غيره.

ولذلك هاجر وهران والجزائر، إلى بلاد المشرق العربي الإسلامي. فاستقر بمصر في المرحلة الأولى، ولا ندري متى رحل، ولكن ذلك تم في عهد صلاح الدين الأيوبي، وعبد المؤمن بن علي أو قبل ذلك في عهد نور الدين زنكي. واستقر في مدينة القاهرة المعزية وطمح أن يلتحق بديوان الإنشاء ككاتب نظراً لمقدرته اللغوية والبلاغية، والإنشائية.

ولكن هذا الديوان كان يشتغل به فطاحل الكتاب والبلغاء، الذين لا يقوى على مناهاتهم من أمثال القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني الكاتب. فأدرك أنه ليس من طبقتهم أو أن السياسة تحول دون مضاهاته لهم، فقرر أن يسلك سبيل الهزل والسخرية، ويتخذ أسلوب الكتابة الهزلية التي لا ينافسه فيها أحد، ولا يقدر على مجاراته. واهتدى إلى كتابة المنامات والمقامات والرسائل والتعريضات والرقاع، ليصل بواسطتها إلى ما يصبو إليه، وهو الفات نظر الناس إليه على الأقل حسبما يبدو، أو الحصول على منصب لطموحه بهذا الأسلوب . وإلى هذا أشار ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان عندما ترجم له

وقال: «أبو عبدالله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب بركن الدين وقيل جمال الدين أحد الفضلاء الظرفاء، قدم من بلاده إلى الديار المصرية في أيام صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى وفنه الذي به صناعة الإنشاء. فلما دخل البلاد ورأى بها القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني الكاتب في تلك الحلبة ، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم، ولا تتفق سلعته مع وجودهم، فعدل عن طريق الجد، وسلك طريق الهزل وعمل المنامات والرسائل المشهورة ،به والمنسوبة إليه وهي كثيرة الوجود بأيدي الناس وفيها دلالة على خفة روحه ورقة حاشيته، وكمال ،ظرفه ولو لم يكن فيه إلا المنام الكبير لكفاه، فإنه أتى فيه بكل حلاوة ولولا طوله للذكرته» (1).

من

أما ابن فضل الله العمري فقد أشار إلى تأثير القاضي الفاضل فيه، وفي

مستقبله الفكري والسياسي والأدبي بالمشرق ووقوفه حاجزاً ضد طموحه فقال: «الوهراني أديب اخترع طريقاً طلعت شمسه من المغرب، ولم يغلق (فيه) للرحمة ،باب وقدم والدولة الصلاحية قد استعلت ويد تصرفها من البلاد قد ،استولت والمجلس الناصري معمور بأجلاء، مأهول بالقاضي الفاضل وأقرانه

الفضلاء وريح الأدب قد هبت ووقود الخواطر قد لبت، والحظ الفاضل قد أخذ معه حظ كل، فأخذ ما للكل ولم يترك لهم إلا الفاضل. وكان يغار على كل بيت ،فكر وكان الوهراني لوذعياً تحميه لألاؤه، وألمعيا تريه البصيرة آراؤه فخاف نفاص ذلك الصل وعبثات ذلك السيف الذي لا يكل. فمال إلى السخف إذ كان لا يحسد على مكبيه ولا ينافس في ترديه وتجليه وجعل هذا سبباً لإظهار ما عنده من الإحسان، وتكلم ولم يخف عثرة القلم ولا زلة اللسان فرفرف عليه جانب من الحنو الفاضلي ورق عليه كما يرق غسق البابلي».

وقد عبر الصلاح الصفدي بوضوح أكثر على محاولات أبي محرز للتعريض بالقاضي الفاضل عن طريق التلميح فقال : وكان قد سلطه الله على الشيخ تاج الدين الكندي وعلى المهذب بن النقاش وعلى القاضي الفاضل أما القاضي الفاضل فإنه ما كان يجسر على التصريح بذكره بل يعرض به كقوله في رسالة كتبها إلى مجد الدين بن المطلب وقد ذكر حمام الفيوم : فلم أشعر إلا والحائط الشرقي قد انشق، وخرج منه شخص عجيب الصورة، ليس له رأس ولا رقبة البتة. وإنما وجهه في صدره ولحيته في بطنه مثل بعض الناس. وهذه إشارة إلى القاضي الفاضل الذي كان ضئيل الجسم ذميم الخلقة، ذا حدبة ،ظاهرة ولكنه فرض نفسه بأدبه وقلمه السيال، وفصاحته وبلاغته، حتى قال عنه صلاح الدين الأيوبي لرجال جيشه : إنني ما فتحت البلاد بسيوفكم وإنما بقلم القاضي الفاضل.

وهذه السخرية بالرجال الكبار كالوزراء والكتاب، وهذا الأسلوب الهزلي بهم ويقيهم جلب له المزيد من المتاعب ولو أنه نفس على نفسه بذلك. وقيل إنه كان أحد الأسباب في تعيينه خطيباً في مسجد داريا بأحواز دمشق الشام، لإبعاده عن مصر وتجنب غائلة لسانه الساخر، مع ضمان مورد لعيشه حتى لا يعود فانتقل إلى هناك في تاريخ لا نعرفه، وقد يكون مطلع السبعينات من القرن السادس. وقضى هناك بقية حياته حتى توفي .

ولم يحدثنا عن سفراته وزياراته، إلى بلدان أخرى ما عدا صقلية والعراق الذي أكد زيارته لهما في مقامتيه البغدادية، والصقلية. ونرجح أنه زار فلسطين في طريقه إلى الشام، وزار الحجاز لأداء فريضة الحج، وتنقل في عدة مدن من بلاد الشام قبل أن يستقر في قرية داريا بصفة نهائية. وحدد ابن خلكان تاريخ وفاته فقال: «ثم إن الوهراني المذكور تنقل في البلاد وأقام بدمشق زمناً، وتولى الخطابة بداريا وهي قرية على باب دمشق في الغوطة وتوفي بها سنة خمس وسبعين وخمسمائة بداريا رحمه الله تعالى ودفن على باب تربة الشيخ أبي سليمان الداراني نقلت خط من القاضي الفاضل، وردت الأخبار من دمشق في سابع عشر رجب بوفاة الوهراني» (1) . وقد ترجم الغبريني لابن محرز البلنسي المتوفى عام 655هـ (1257م) ولا ندري هل هو من عائلة الوهراني هذا أم لا "[1] .

---

[1]– يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1995،ج02، ص183. ممن ترجم لا بن محرز الوهراني : ابن خلكان في وفيات الأعيان بالجزء الرابع. وابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار والصفدي في الوافي بالوفيات. وابن قاضي شهبة في الأعلام والسيوطي في الكنز المدفون ومحمد كرد علي في مجلة المقتبس (1906 – 1908م). وخير الدين الزركلي في الكنز المدفون. ومحمد كرد علي في مجلة المقتبس (1906) – 1908م). وخير الدين الزركلي في الأعلام. وفريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين وعبد اللطيف حمزة في دراسة عن الأدب المصري.

آثار ابن محرز الوهراني الأدبية:

لقد كان ابن محرز الوهراني خلال استقراره بمصر والشام يكثر من الكتابة الأدبية في أغراض شتى، بأسلوبه الهزلي الساخر، المصحوب بكثير من التعمية، والإيحاء، والنقد اللاذع وخلف لنا مجموعة لا بأس بها من اثار الأدبية المكتوبة في شكل ،رسائل ومقامات ومنامات ،ورقاع جمعت كلها أو جلها في حياته، أو بعد مماته لا ندري وتحمل عناوين مختلفة أحياناً: رسائل الوهراني وأحياناً منامات الوهراني» وأحياناً: (مقامات الوهراني»، وأحياناً: «منشآت الوهراني»، وأحياناً: دليل الترسل»، وأحياناً : جليس كل ظريف وهراني». "[1]

وتوجد منها ثلاث نسخ مخطوطة معروفة هي: نسخة دار الكتب المصرية. ونسخة آيا صوفية بتركيا، ونسخة مكتبة جامعة برينستون بأمريكا، التي اعتمدها كلها إبراهيم ،شعلان ومحمد ،نغش، في تحقيقهما لمنامات الوهراني ،ومقاماته ورسائله التي نشراها تحت هذا العنوان عام 1968. ولكن للأسف لم يشيرا ولو بكلمة واحدة لسيرة هذا الأديب اللامع، وحياته الشخصية. وهذا لا يقلل من الجهد الذي بذلاه في الكشف عن آثار الوهراني وإبرازها ونشرها إثراء لأدب المقامة، والإنشاء الساخر، والأسلوب الهزلي بما فيه من العمق البلاغي والألفاظ النابية والسخيفة والأفكار المبتذلة والصفة أحياناً"[2]

نماذج من مقامات الوهراني: من نماذج المقامات عند الوهراني:

(1)- مقامته البغدادية، التي وصف فيها رحلته إلى بغداد والمدينة، ومدح الخليفة .

(2)- ومنامه الكبير الذي سار فيه على غرار أبي العلاء المعري. فتصور نفسه ميتاً، وبعث إلى يوم المحشر، والتقى هناك بالعلماء والفقهاء، والشعراء، والملوك، والأمراء، والخلفاء والوزراء والمتصوفين، وتحاور مع البعض منهم، ووصف أحوال وأوضاع آخرين بأسلوبه الناقد والساخر، والغامض، والغريب مع خفة الروح، وطرافتها على عكس أسلوب المعري الذي يمتاز بالجدية والصراحة والميل إلى أفكار المتصوفين.

(3) - ومقامته في شمس الخلافة على لسان علي بن حماد الصقلي .

(4)- ورقعته على لسان مساجد دمشق وجامعها الكبير.

(5)- ورقعته على لسان بغلته ريحانة إلى الأمير عزالدين موسك.

(6 - ورسالته إلى قاضي الفاسقين وهو بمصر، عن نائبه بدمشق يخبره فيها بما

---

[1]- يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1995،ج02، ص183.

[2]- يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1995،ج02، ص183. ممن ترجم لا بن محرز الوهراني : ابن خلكان في وفيات الأعيان بالجزء الرابع. وابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار والصفدي في الوافي بالوفيات. وابن قاضي شهبة في الأعلام والسيوطي في الكنز المدفون ومحمد كرد علي في مجلة المقتبس (1906 - 1908م). وخير الدين الزركلي في الكنز المدفون. ومحمد كرد علي في مجلة المقتبس (1906) - 1908م). وخير الدين الزركلي في الأعلام. وفريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين وعبد اللطيف حمزة في دراسة عن الأدب المصري.

صارت إليه الأحوال بعد توجهه إلى مصر. ونرجح أنها في ذم القاضي الفاضل .

(7)- وعهد تقليد عن قاضي الفاسقين لأبي الثناء محمود بن يحيى بن أفلح اللخمي المعروف بأتكوا .

(8)- وخامته على صقلية.

(9)- وكلامه عن أبواب البر العشرة التي تسخط الله وترضى الشيطان .

وفيما يلي نورد بعضاً من هذه النماذج لإبراز أسلوب الوهراني وسخريته وهزله ،وظرافته وطرافته وبلاغته ونذالته كذلك في بعض الأحيان، وسخفه وإسفافه.

<u>النموذج الأول: قطعة من مقامته البغدادية</u>

قال الوهراني: لما تعذرت، مأربي واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت مذهبات الشعر بضاعتي، ومن أخلاف الأدب رضاعتي، ولا وزير إلا قرعت ،بابه وطلبت ،ثوابه ولا بقاضي إلا أخذت سيبه، بي وأفرغت جيبه . فتقلبت الأعصار، وتقاذفت بي الأمصار، حتى قربت من ،العراق، وسئمت من الفراق. فقصدت مدينة السلام لأقضي حجة الإسلام. فدخلتها بعد مقاساة الضر، ومكابدة العيش المر. فلما قربها قراري وانجلى فيها ،سراري طفتها طواف المفتقد وتأملتها تأمل المنتقد، فرأيت بحراً لا يعبره زاخره ولا ،آخره وجنة أبدع ،جنانها، وفاز باللذة سكانها، لا يبصر يميل عنها المتقون ولا يرتقي إلى صفتها المرتبون، كمثل الجنة التي وعد المتقون». فأرحت نفسي من سلوك الغو والفج، وجلست أنتظر أيام الحج، وتاقت نفسي إلى محادثة العقلاء، واشتاقت إلى معاشرة الفضلاء، فدلّني بعض السادة الموالي إلى الشيخ أبي المعالي، فقال: هو بستان الأدب، وديوان العرب، يرجع إلى رأي مصيب، ويضرب في كل علم بنصيب. فقصدت قصده حتى جلست عنده فحين نظر إلي، ورأى أثر السفر عليّ، بدأني بالسلام وبسطني ،بالكلام وقال : من أي البلاد خرجت، وعن أيها درجت؟ فقلت : من المغرب الأقصى، والأمد الذي لا يحصى، ومن البلد الذي لا تصل إليه الشمس حتى تكل أفلاكها وتضج ،أملاكها، ولا القمر حتى يتمزق سرجه ويتناعى ،برجه ولا الريح حتى يحجم أقدامها وتحفى أقدامها.

ومضى الوهراني في استعراض أفكاره على هذا النمط وقال قبل نهاية المقامة وهو يجيب عن رأيه في الوزير عضد الدين فقلت له : إذن والله أشكره شكر الأرض للسماء والروض الزاهر للماء، ولا سيما أن أخذ لي من الخليفة خلعة سنية منيفة، أستضيء باقتباسها وأتبرك ،بلباسها، وأنشرها على منارة الإسكندرية، وأطرحها على ساحل المرية وأكتب لها الأقران في وهران وأطلق بشكره اللسان في تلمسان وأدعو له في مدينة فاس على عدد الأنفس، وأثنى عليه في أغمات إلى وقت الممات. فقال : أبشر ببلوغ الأمل، ونجاح

العمل».

المنام الكبير لابن محرز الوهراني (ركن الدين الوهراني):

والنموذج الثاني: قطعة من منامه الكبير عن يوم الحساب:

يقول الوهراني:(....فبينا نحن في المعاورة وإذا نحن بمالك خازن النار قد هجم علينا، وقبض على أيدينا السلسلة ورمي في أرقابنا وسحبنا إلى النار، فارتعنا إلى ذلك ارتياعاً عظيماً. وقلت لك : هذا الذي خوفتك منه قد وقعنا فيه. فقلت له يا سيدي يا مال اسمع عني كلمتين لوجه الله تعالى، فيقول لك : كيف أسمع منك وقد حذفت ربع اسمي في النداء فتقول : والله ما حذفته للترخيم في النداء الجائز عند جميع النحاة، وإني لفي شغل عن ذلك وما حذفته إلا من شدة الهلع وانقطاع مادة الكلام فيقول: هات كلمتيك قل ما تشاء أن تقول فتقول : يا سيدي هذا رجل مغربي من أهل القرآن وأنا رجل محدث عن رسول الله ، فبأي جرم تأخذ قبل وقوف الرب سبحانه على حسابنا فلعله يتجاوز عنا . فيقول لك : يا خبيث أنت كنت من المتفننين في اللياطة ومن المتظرمين، فقلت له : أنا كيف ذلك يا سيدي ؟ فقال لي: هذا كان يفسق بأولاد المسلمين، وقال لك : كنت .. أولاد المسلمين وتثبت أسماءهم في جريدة عندك على حروف المعجم، حتى لم يبق عليك منها إلا القليل. وأتى عليك أجلك وأنت مجتهد في تعليق بقية الحروف يا ديوث أليس أنت الذي أدخلت فلاناً الأمر إلى الخراب المظلمة. ونيمته تحت ضوء الروزنة فلما لم يطبق الضوء حجره قلت له بتحنين وتلطيف: يا سيدي قربها إلي بفضلك يا خنزير وأي فضل يكون لأمر منكوح يا مرجوس . أليس أنت الذي أخذت يحيى المطرز وما قام عليك وراح عنك وأنت مغبون فلما اجتمعت به بعد ذلك بمدة طالبته بالتمام؟ ولو عددت عليك المخازي التي رأيتها أمس في صحيفتك لضاع علي الزمان.

وأما هذا المغربي فرجل قواد لا شك فيه فاستشطت أنا عند ذلك غضباً وأظهرت القلق العظيم وقلت له : المثلي يقال له هذا الحديث؟ والله لتندمن على هذا الكلام فقال لي مالك : لعلك تريد أن تهجوني بشعر مثل ما رأيت في صحائفك اليوم أو تعمل في مقامة تذمني فيها مثل ما تفعل مع بني آدم والله لألطمنك بالفلع حتى يبول القندلاني على ساقيه واشتهيت أن أعلم ما سبب غيضك علي هل تقدر تحلف أنك ما كنت تقود على رفيقك هذا في دار الفوارة بحبرون في سنة ثلاثة وخمسين وخمسمائة من الهجرة 2 فيفري 221158 جانفي (1159). فلما سمعنا خرسنا وأبلسنا وعلمنا أن الناقد بصير لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ،أحصاها فرجعنا حينئذ إلى الملاطفة والسؤال وقلنا له: سألناك بالله لا تعجل علينا فنحن صائرون إليك بعد قليل، وما لنا عليك من محيص، فتركنا بعد الجهد الجهيد، فدخلنا في غمار الناس، فقلت لك يا أخي قد طير هذا الجبار عقولنا، ومرت لنا معه ساعة تشيب الولدان فأطلع بنا إلى جبل الأعراف لنشرف منه على أهل الموقف ونتفرج على بساتين الفردوس. فتستريح صدورنا وترجع إلينا أرواحنا في ذلك المكان، فقلت لي : احذر أن تفعل ذلك الله الله في نفسك، فقلت لك : ولم؟ فقلت : لأن يأسنا من الجن أكثر من رجائنا فيها، ومتى رأينا أشجارها وأنهارها وفاتنا دخولها تضاعفت علينا الحسرات والأحزان وعظمت المصيبة بالحرمان، وعدم ذلك في التخيل خير من
وجوده في العيان فإنه يقال في المثل : عين لا ترى قلب لا يحزن .